أكرهك لأنك معلم رياضيات!

معتز حمودة

الرياضيات فن، وهذا الفن كما الفنون الأخرى له ركائزه، ومهاراته، والفنان الذي لا يملك المهارات الأساسية في مجال فنه، بدون شك، ليس على مستوى هذه الرسالة، ولهذا أعتقد أن معلم الرياضيات الناجح لا بد أن يكون فناناً، يمتلك المهارات الأساسية لعرض هذا الفن والتألق به في فضاء الصف وخيالات طلابه . . . .

في العام نفسه الذي تخرجت فيه من الجامعة، وبعد بداية العام الدراسي بأيام عدة، تلقيت اتصالاً هاتفياً من مديرية التربية والتعليم، يخبرني أنني قبلت للتدريس في مدرسة ثانوية في قرية بعيدة نوعاً ما عن مكان سكني.

وفي اليوم التالي توجهت إلى المدرسة بقليل من الخوف، وكثير من الأسئلة «ماذا سأعلم؟ وأي صف سيعطيني المدير؟ وكيف سأواجه الطلاب؟» وكثير من الأسئلة راودتني في ذلك اليوم.

وعندما دخلت إلى المدرسة، وجدت المدير في استقبالي، فألقيت التحية وعرّفت عن نفسي، فتوقعت أن يجتمع بي ويعطيني بعض الملحوظات والتوجيهات، ولكني فوجئت بأنه أرشدني إلى الصف الذي سوف أعلمه، وكان الصف العاشر، وأوضح لي أني سوف أعلمه الرياضيات والعلوم. وفعلاً دخلت إلى الصف وعرّفت عن نفسي وبقيت مع الطلاب أتعرف إليهم، وبعدها أكملت يومي في التنقل بين الصفوف والتعرف عليهم والشرح لهم عن الفائدة والمتعة في تعلم الرياضيات.

وأذكر أني قد أمضيت الشهر الأول وأنا أشعر بالتوتر والقلق من وضع المدرسة، فقد كانت مدرسة قديمة تنفر من واجهتها الأنظار، ملحق بها بعض الأبنية الجديدة، ولكنها لم تكن أفضل حالاً، ولا يختلف عليها الأمر إذا كشفت عليها من الداخل، حيث أن الصفوف ضيقة ومزدحمة بالطلاب، وجدرانها متسخة من جراء فعل الزمن ومذكرات الطلاب عليها.

وكانت المدرسة ذات إمكانيات ضعيفة، حتى من ناحية الوسائل التعليمية فلم يكن فيها الحد الأدنى من الوسائل المطلوبة، ولكن كل هذا ليس ما أود الحديث عنه، فإن مشكلة المباني وضعف الإمكانات تعاني منها أغلب المدارس. أما ما أود الحديث عنه فهو وضع المعلمين والطلاب في تلك المدرسة، وأبدأ بالمعلمين، حيث كان أغلب المعلمين ينظرون إلى مهنة التدريس على أنها مهنة عادية كأي مهنة أخرى، وليست بحاجة إلى ذلك المجهود الكبير، فما عليهم سوى شرح الحصة وحل بعض المشاكل التي تواجههم مع الطلاب، فما كانوا يكترثون بملاحظات المشرفين أو مدير المدرسة. وذلك حتى لو كانت تقاريرهم سيئة أو نسب نجاح طلابهم متدنية، فبالنسبة لهم سواء أكانت تلك التقارير ممتازة أم سيئة، ومهما كانت نتائج طلابهم عالية أو متدنية، فإن «الراتب لن يتأثر» وهذا هو الأهم من وجهة نظرهم.

ولا أبالغ إن قلت إن بعض المعلمين كان ينظر إلى مهنة التدريس على أنها عمل ثانوي، وأن عمله الأساسي هو المشروع الذي يديره بعد الدوام.

أما الطلاب فكانت مشكلتي معهم ليس في شرح المادة، وإنما في كيفية التعامل معهم، حيث واجهت العديد من الطلاب كثيري الشغب في الحصة، فضلاً عن إهمالهم المستمر للواجبات المنزلية، على الرغم

من أنني كنت أضع كل ما لدي بين أيديهم، وحاولت دائماً أن أظهر لهم قوة شخصيتي والجدية في التدريس والشرح بصورة مشوقة، لكن كل ذلك لم يُجدِ نفعاً ولم يعطِ نتائج كافية، لأن الطلاب لم يحصلوا على تعليم جيد في المراحل الابتدائية، وبخاصة أنني كنت أدرسهم أصعب المواد وهي الرياضيات والعلوم.

وفي ظل كل هذه الظروف التي ذكرتها، وبعد مرور ثلاثة أشهر تقريباً، كنت أعيش مشاعر متناقضة، فقد وجدت نفسي في عمل أحبه وأكرهه في الوقت نفسه، وبالفعل فقد عقدت العزم أن لا أعمل معلماً مدى الحياة، وما دفعني إلى التفكير في هذا الأمر أن هذا الإحباط لن يتغير إلا إذا انتقلت إلى مدرسة أخرى، ولكن اتضح لي أن كل المدارس متشابهة، وهذا الرأي كونته من زملائي المعلمين في بعض المدارس التي أعرفها.

وهذا باعتقادي من عيوب العملية التعليمية في بلادنا، فالمستوى التعليمي واحد، وهذا عكس بعض المجالات الأخرى، بحيث أنك إذا نظرت إلى الفنادق تجدها مصنفة إلى خمس نجوم، وأربع نجوم . . . كذلك الأندية الرياضية مصنفة إلى درجات وهكذا . . . بحيث يتسنى لك الاختيار، بينما المدارس والمدرسون فالمستويات كلها واحدة، ولا مجال للاختيار. وهذا في رأيي وبدون شك يقتل الإبداع، ويجعل الجميع متساوين، ويقضي على الرغبة في التفوق بالنسبة للمدرسة أو المنافسة للحصول على مستويات ودرجات أفضل بالنسبة للمعلم أيضاً.

وبعد هذه التجربة التي لم تدم إلا أربعة أشهر، صرت أعتقد أن المعلمين في مدرستي كانوا على صواب! حيث أن المعلم الذي يحصل على تقدير مقبول والمعلم الذي يحصل على تقدير ممتاز في الكفة نفسها، ولا فرق بينهما في نظر التربية والتعليم، وإن كان هنالك فارق فإنه قد يكون بشهادة تقدير فقط.

وأذكر أنه قد حصلت لي نقلة نوعية، وذلك في بداية الفصل الثاني من العام نفسه، حيث هاتفني أحد أعضاء مكتب التعليم في وكالة الغوث، وأبلغني أنه قد وقع عليَّ الاختيار للتعليم في إحدى مدارسهم، وما أسعدني في تلك اللحظة أن المدرسة التي سأقوم بالتعليم فيها كانت قريبة من مكان سكني، وتمنيت أن تكون أفضل لي من سابقتها، إضافة إلى ذلك ربما أحظى براتب أفضل، لأنها ليست مدرسة حكومية مع أن نظامها لا يختلف عن المدارس الحكومية، وكان الأهم بالنسبة لي أنني قد أكون حظيت بفرصة تنقذني من الإحباط الذي مر بي في الأيام السابقة، وربما تكون المدرسة الجديدة تختلف في كثير من الأمور عن مدرستي الأولى.

بدأت عملي مدرساً في برنامج التعليم العلاجي في مدارس وكالة الغوث، الذي أصبح يسمى لاحقاً (التعليم المساند)، ولا شك أن هذه التجربة كان لها الأثر الأكبر في اكتسابي الخبرات الكافية والضرورية اللازمة لتدريس الرياضيات في المراحل الأساسية، وما ساعدني أكثر أن العام الأول لم يكن فيه خطة واضحة في كيفية العمل في هذا البرنامج، باستثناء بعض اللقاءات التي كان يعقدها المشرفون

من فعاليات المساق التأسيسي (الدراما في التعليم) 2011–2012.

في كيفية بناء الخطط العلاجية، ما فتح الباب أمامي للبحث عن إستراتيجيات مختلفة للوصول للأهداف المنشودة، دون تقيد بمنهاج معين أو زمن محدد، فكانت من أولويات مهماتنا في هذا البرنامج، تحليل المناهج، وبناء الاختبارات التحصيلية والتشخيصية، وتطبيق هذه الاختبارات وتفريغها وتحليلها، وتحديد الفئات المستهدفة وجوانب الضعف، وتحديد المهارات الأساسية المراد علاجها، وبناء الخطط العلاجية وتحديد الإستراتيجيات العلاجية المناسبة، وإعداد أوراق العمل النوعية، وإعداد الوسائل التعليمية المناسبة والمتقنة الصنع، وقد أوليت هذا الجانب اهتماماً كبيراً لما للوسائل التعليمية من دور كبير وجذاب في تقريب الفكرة للطلاب، وتثبيت المعلومة.

وبعد أن عملت في هذا البرنامج مدة عامين، تم تحويلي إلى معلم نظامي في المدرسة نفسها، وذلك بسبب عدم توفر معلمي رياضيات للمرحلة الأساسية، وعندما تسلمت العمل، حاولت التكيف مع العمل الجديد، وبخاصة أن عدد الطالبات في الصفوف العلاجية كان لا يتعدى عشر طالبات، أما الصفوف العادية فكانت تتعدى أربعين طالبة، مع ضرورة إنهاء المنهاج في الوقت المحدد، بالإضافة إلى أعباء الأعمال الصفية وغيرها من الأمور . . . .

وبعد مرور أكثر من عامين على عملي مدرساً نظامياً، قامت إدارة الوكالة بتطبيق اختبار موحد للصف الرابع لمادة الرياضيات على مدارس الضفة الغربية، وكان هذا الاختبار يتمتع بمصداقية عالية في طريقة إعداده وتطبيقه، وعند ظهور النتائج كانت نسبة نجاح الصف الرابع 26%، وقد صدمت بهذه النتيجة على الرغم من أنني بذلت جهداً ليس بسيطاً.

ومن هذه النتيجة أدركت أن هناك مشكلة حقيقية، فعقدت العزم على بذل كل الجهود لمواجهتها، بوضع الإستراتيجيات والمبادرات الكفيلة لحل تلك المشكلة، لما لها من انعكاسات على شخصية الطالب حاضراً ومستقبلاً.

ومن أولى المبادرات التي قمت بها هي بناء جسور الثقة والمودة مع الطلبة، واختصار الفجوة القائمة، فكثير من الطلبة يكرهون الرياضيات بسبب فكرة مسبقة من الآخرين عن مدى صعوبة المادة، أو لأنها مادة جافة، مجردة، صعبة الفهم.

وأذكر أنني تعرضت لموقف في أحد الصفوف، يظهر فكرة كره الطلاب لمادة الرياضيات، فبعد دخولي الحصة الأولى للصف الرابع، وكانت هذه حصتي الأولى لهذا الصف، بدأت الحصة بالتعريف عن نفسي، وأنني معلم الرياضيات، ومجرد أن أنهيت كلامي، فإذا بإحدى الطالبات تقف وتقول «أنا أكرهك» فاستغربت! وما كان مني إلا أن سألتها عن سبب هذا الموقف، على الرغم من أنها لم ترني من قبل، ولم يمضِ على تعارفنا سوى دقائق، فأجابتني وبكل جرأة: «لأنك معلم رياضَيات».

ربما كان في رأي هذه الطالبة من الصواب ما جعلني أتأمل قليلاً في معناه، وبخاصة أن هذا القول يصدر من الطالب وهو محور العملية التعليمية، فيقال إن الشخص الذي لا يحب المادة يخفق فيها حتى وإن كانت هذه المادة سهلة، ويقال أيضاً إن الطالب الذي لا يحب المعلم، فإنه غالباً ما يخفق في مادته.

ولذلك جعلت أحد أهدافي الرئيسة من تدريس المرحلة الابتدائية، هو ترغيب الطلاب في دراسة هذه المادة، وذلك من خلال بيان جمالها وقوتها وأهميتها ودورها في تكوين عادات التفكير السليم وحب الاستطلاع والإبداع والابتعاد عن إشعارهم بالفشل، أو وضعهم في مواقف يفقدون فيها ثقتهم بأنفسهم عند التعامل مع الرياضيات، ومن الأمور التي ساعدتني أكثر على بناء جسور الثقة هو أنني حاولت إيجاد طريقة جديدة في التعامل مع الطلاب مخالفة لما كنت أتبعه سابقاً، فقد كنت أعمل على تنمية صداقة بيني وبين الطلاب، ولكني اكتشفت أن الطالب كان في بعض الأحيان يتمادى، وعندها كنت أخسر القدرة على وضع الحدود بيني وبينه.

ولإيجاد أسلوب جديد، حاولت مراقبة زملائي المعلمين فوجدتهم ينقسمون إلى قسمين؛ فالأول يرتبط بعلاقة صداقة قوية مع الطلاب، ويكون التعامل اللفظي بينهما كما يعاملون أصدقاءهم من العمر نفسه، وأما الصنف الثاني فكان يؤمن بوجود حدود بين الطرفين، بحيث أن المعلم يبقى معلماً والطالب طالباً، ولا يجوز تحول العلاقة إلى صداقة، وبالفعل تبنيت الأسلوب الثاني، لأنني شعرت أن المعلم قادر على اكتساب حب الطلبة دون إيجاد علاقات شخصية معهم، وأنا أعتقد أن الطالب لم يعد كما كان، فقد أصبح ذا شخصية قوية وأكثر إدراكاً بما يدور حوله من أحداث.

أما الاتجاه الآخر الذي عملت عليه فكان المنهاج، حيث اكتشفت بعد تحليلي للمنهاج أن جزءاً كبيراً من التمرينات يختص بمهارات التفكير العليا وحل المشكلات، ولذلك رأيت أنه من الضروري مساندة المنهاج المدرسي بخطة تساعد على مراعاة الفروق الفردية، فقمت ببناء خطة علاجية في المهارات الأساسية لمادة الرياضيات للصف الرابع الأساسي، مستفيداً من خبرتي في التعليم العلاجي وإعداد الوسائل التعليمية، حيث بدأت بتطبيق هذه الخطة مع إجراء التعديلات عليها والتغذية الراجعة بشكل مستمر، وكان السبب الرئيس الذي دفعني لبناء هذه الخطة، هو نسبة النجاح التي حصلت عليها المدرسة للصف الرابع للعام 2008 وكانت 26%، وعندما أقدمت إدارة الوكالة على تطبيق الاختبار الموحد للعام 2010، اعتبرت أن هذه الاختبارات سوف تكون المحك الرئيس للخطة التي عملت عليها، وعندما أعلنت النتائج للعام 2010 كانت نسبة النجاح 41%، ونوعاً ما كانت النتائج مرضية بمقارنتها بنتائج الاختبار للعام 2008، وبعد إجراء تعديلات جديدة على الخطة وتطبيقها، اشتركت المدرسة في اختبار الرياضيات للعام 2011 وكانت نسبة النجاح 56%، ومن وجهة نظري فإنها نتائج مرضية بالمقارنة مع نتائج العامين السابقين، وبخاصة أن هذه الاختبارات تتمتع بمصداقية عالية، فهذه الاختبارات تشابه في إعدادها وأسلوب تطبيقها اختبارات (Timss) العالمية.

ومن أهم المشكلات التي واجهتني في تطبيق هذه الخطة، إدارة الوقت المخصص للتعليم العلاجي وتنظيمه، والصفوف المزدحمة، وكثافة

المنهاج المقرر، والاحتياجات المادية غير المتوفرة . . . ، لذا كان العمل العلاجي مسؤولية كبيرة تشاركني فيه الإدارة المدرسية وأولياء الأمور. وانطلاقا من أن المعلم صاحب الرسالة الملتزم بأخلاقيات مهنة التعليم هو الذي يستثمر الوقت بشكل فعال، حاولت تنفيذ الخطة في أثناء الحصة الدراسية العادية، من خلال إعداد الأنشطة والتدريبات الخاصة بالطلبة ذوي الحاجة للمعالجة، أو من خلال تنظيم وقت التدريب قبل الدوام المدرسي، أو من خلال الاستفادة من دوام يوم السبت الإضافي.

وهكذا، تبين لي من خلال التجربة العملية الصادقة، أن المعلم الناجح في تدريس الرياضيات لا بد أن يلم بالأمور الآتية:

» الطالب الذي سيتلقى هذه المادة.
» الطريقة التي ستعرض بها هذه المادة.
» المعرفة الجيدة بهذه المادة.

وهذا مخالف لما كنت اعتقده سابقاً أن معرفتي بالكتاب المدرسي كافية جداً لكي أكون معلماً ناجحاً.

وأخيراً، أحمدا لله أنني استطعت أن أتخطى شعور اليأس والإحباط الذي راودني في بداية ممارستي لمهنة التعليم، لأني لم أتوقع يوم دخلت إلى مهنة التعليم أن أستمر فيها إلى هذه اللحظة، بسبب إدراكي ثقل المسؤولية الملقاة على عاتقي.

مدرسة بنات قطنة الأساسية

من فعاليات المساق التأسيسي (الدراما في التعليم) 2011–2012.